إسماعيل فى شعر شوقى

للأستاذ أحمد احمد بدوى

لأسرة شوقى صلة قديمة بإسماعيل سمحت له فى إحدى قصائده أن يقول إنه ولد ببابه ، وكان لأبيه وجده من قبل ، صلة بآباء إسماعيل ، قال الشاعر فى مقدمة كتابه الشوقيات : « أخذتنى جدتى لأمى من المهد ، وكانت منعّمة موسرة فكفلتنى لوالدىّ وكانت تحنو علىّ فوق حنوّهما ، وترى لى مخايل فى البرّ مرجوّة حدثتنى أنها دخلت بى على الخديو إسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى ، وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعتُ على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدّتى : اصنعى معه مثل هذا ، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى ؟ قال : « جيئى به إلىّ متى شئت . إنى آخر من ينثر الذهب فى مصر » وتلك القصة تدل على ما كان بين أسرة الشاعر وعاهل مصر الكبير من رباط وثيق . ومن المؤكد أن لو كان امتدّ الزمن بإسماعيل فى مصر ، حتى نضجت مواهب شوقى فى الشعر لكان شاعره الأثير ، فقد عرف هذا العاهل برعايته للأدب وحبه للشعراء ، ولكن الأيام لم تلبث أن أبعدته عن العرش سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ، وشاعرنا طفل لا يعدو العاشرة من عمره بكثير أخذ الزمن يمضى ، وإسماعيل مبعد عن بلاده حتى وافته منيته فى مارس سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف ، واستقبلت مصر جثمانه ؛ وهنا يثور الشعر فى صدر شوقى أمام هذا المشهد الفذ من مشاهد الحياة ، فيضع قصيدة إسماعيل ، يحدثنا فيها عن حياته أو عن العبرة فى حياته ؛ وإن الجو الذى تخلقه هذه القصيدة ، وتحيط به القارئ جوّ حزن وأسى ، والشعور الذى تبعثه فى النفس شعور أسف على أن تكون هذه الخاتمة خاتمة ملك ملأ عين الدنيا وسمع الزمان حيناً طويلاً من الدهر .

ليت شعرى أكانت تلك الحياة غير حلم بهيج امتدّ ما شاء له الله أن يمتد حتى إذا انقضى الحلم لم يجد صاحبه شيئاً منه فى يديه

حلم مدّه الكرى لك مدّا وسدى تبتنى لحلمك ردّا
وحياة ما غادرت لك فى الأحياء قبلا ، ولم تذر لك بعدا

ولم لا تكون حياة إسماعيل تلك الحياة ، وقد جمعت الضدين : السعادة والبؤس ، وعظمة السلطان ، وارتفاع الشأن ، ثم الانزواء فى مكان ناء حيث لا أمر ولا نهى ، ولا تاج ، ولا صولجان :

لم ير الناس مثل أيام نعما ك زماناً ولا كبؤسك عهدا
كنت إن شئت بدّل السعد نحساً وإذا شئت بدّل النحس سعدا
قائماً بالعطاء والسلب فينا كالليالى أو أنت أكبر أيدا
يتمشى القضاء خلف نواهيك حديد الأظفار يطلب صيدا
ويظل السراة منك كريم رضيت رفده العناية رفدا
ومعز يصيّر القيد تاجاً ومذل يصيّر التاج قيدا
أنت من مثّل السعادة لو لم يك ذاك النعيم أخذاً وردّا

ولقد أنصف شوقى إسماعيل وكان صريحاً عند ما وصف نفسية إسماعيل بأنها نفسية أبيّة تبغض أن تجد يداً أجنبية تحاول أن يكون لها نصيب فى ملكه وسلطانه ، فالعاهل العظيم لا يؤوده الدين ، ولو كان فى ضخامة الجبال ، ولكن الذى لا يستطيع احتماله ، ولا يطيق عليه صبراً ، أن يجد دائنه يحاول أن يفرض عليه سلطانه أو أن يسلبه شيئاً من حرية الرأى والعمل :

قصد الدهر منك ركن المعانى ورمى طودها الذى كان طودا
والأبىّ الذى أبى العصر فى الملك شريكا لو أنّ ذلك أجدى
لم ينؤ بالجبال ديناً ولكن ودّ منه الغريم ما لم يودّا

ولقد رجع شوقى القهقرى ، فعاد إلى ذلك العهد الذى استقبلت فيه مصر ارتقاء إسماعيل عاقدة عليه كبار الأمانى والآمال وها هو ذا الأمير النبيل يحقق آمال وطنه فيه بتلك الهمة العالية التى تريد أن تحيل الجهل علماً ، والضعف قوة ؛ فهاهى ذى يده تشيد فى كل يوم للعلم صرحاً ، وتنشئ للوطن جيشاً ، وتقيم مظاهر الحضارة والعمران لتصبح مصر جديرة بأن تنال ما هى أهل له من عظمة وجلال ، وها هو ذا العاهل العظيم يصغى إلى أمنية بلاده فى الحكم النيابى ، فتنال الأمة ما تتمناه ، ويصون لها مظهرها الخارجى ، فوفوده تترى إلى الملوك تنبئهم بأن مصر استيقظت تريد أن تظفر بمكانها نبيلة كريمة ، وإذا كان لسلاطين الترك على مصر شىء من الأمر ، فهدايا إسماعيل تعرف كيف

تستخلص حقوق مصر من أيديهم ، والمال فى سبيل الآمال رخيص مهما كان كبير المقدار . استقبلت مصر إسماعيل يوم ولايته بقلب عامر بالآمال :

لبس الشرق من لقائك تاجاً   وتلقى أعوام رشدك عقدا
وجرت فيه بالسعود جوارٍ   لك منّين مصر ملكا ومجدا
كلَّ يوم صرح يشيَّد للعلم ، وظلٌّ يمدُّ فى مصر مدًّا
ولواء ، وعدّة ، وعديد   ونظامٌ ترى به الشهب جندا
وغزاة فى البيض والسود تبنى   مصر فيها مجدّداً مستردًّا
وبريد لها تسيل به القضب ، وثان بالبرق أجرى وأهدى
وخطوط بها التنائى تدان   ويخارٌ به الأقاليم تندَى
وبيوتٌ لله ترفعُ فيها   وقصورٌ تُشادُ للحكم شيدا
وأمانٌ للرعيّة توفى   وحقوقٌ فى كلّ يوم تؤدَّى
ووفودٌ إلى الممالك تزجى   وثمينٌ إلى الخوانيق يُهدى

وفى هذا البيت الأخير سياسة إسماعيل نحو سلاطين آل عثمان يهدى إليهم ثمين الهدايا ، ليظفر منهم بما يحقق آماله وأمانيه .

ولكن إسماعيل يسير إلى غاياته فى غير تمهل ، ويمضى إلى هدفه غير متلبث ولا وانٍ كأنه كان يخشى — والعمر قصير — الا يحقق آمال قلبه الكبير ، وهنا يتحدث شوقى وكأنه يهمس إلى الأمير العظيم أو يناجيه بأن فى التأنى السلامة ، وما كان أخلق الأناة أن تحفظ التاج لربّ التاج ، وأن تصون السعادة والمجد للراعى والرعية ! وما كان أخلق الحذر بأن يصون العرش من تلك الأيدى التى امتدت رقيقة ناعمة ، فلما ملكت أصبحت شديدة عسراء . ولنصغ إلى هذه المناجاة الحزينة :

يا كبير الفؤاد والهم والآ   راب مهلاً مهلاً رويداً رويدا
لم تكن حقبة أساءت عليًّا   فى جنى عمره لتحفظ ودًّا
خذلت منه واحد الترك والعرب ، وسامت سيف المشارق غمدا
لا غراماً بحاسديه ولكن   رهباً أن يبلغ الشرق قصدا
ولأنت ابنه الذكى فهلا   جئت بالطالبة الطريق الأسدا
فتأنيت ، والتأنى فلاح   وهو يا ثاقب النهى بك أجدى
وحميت الأيدى العوادى أن تد   نو ، وأن تمتلى ، وأن تتصدى
بالغت بعد لينها لك فى الصـ   ـبر ، وصار الوعيد ما كان وعدا
وإذا العصر والملوك خصوم   لك ، والناس والعيون أعدا

ويختم هذه المناجاة بهذا البيت الحزين المبدوء بلو :

ولو أنا صنا وصنت ، لعشـ   ـنا الدهر فى العز والسيادة رغدا

وكأن هذه المناجاة قد أثارت فى نفس الشاعر الكبير ذكرى هذا اليوم الذى لا ينسى فى تاريخ إسماعيل ، وهو يوم افتتاح قناة السويس . وهل شهدت مصر فى تاريخها الحديث مهرجاناً مثله ، جعل اسم إسماعيل على كل لسان ، وذكر مصر فى كل مكان . أين هذا اليوم الذى جعل البحرين يلتقيان ، وأضافت مصر فيه ملوك الزمن ، وعظماء الأمم ، يجدون عند إسماعيل ، كرماً أندى من البحر ، وأعذب من ماء النيل . ما بال هؤلاء الملوك قد تغيروا مع الدهر ، وانقلبوا انقلاب الأيام ! وما بال تلك الصور قد مرت كأحلام الليل ، لا يلبث الصبح أن يتنفس حتى تمضى ولا تعود !

نهضت مصر بالزمان نزيلا   وبأهليه يوم ذلك وفدا
خطروا بين زاخرين ولاقوا   ثالثاً من نداك أحلى وأندى
بين فلك يجرى وآخر راس   ولواء يحدو ، وآخر يحدى
وملوك صيد يراح بهم فى   واسع الريف والصعيد ويغدى
صور لم يكنَّ حقاً ، وحلم   نجم الصبح فيه لما تبدى

وهنا لاينسى شوقى أن هذا الجلال الذى بدت فى ثيابه البلاد قد دفعت مصر ثمنه غاليا ، قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، وكأن عقل الشاعر ضاق عن أن يدرك كيف أنفقت فتساءل قائلا :

وقناطير يجفل الحصر عنها   كل يوم تمدها مصر عدا
ليت شعرى ؟ هل ضمن فى الماء ، أم هل   يضمر الماء للودائع ردا

ولكن الشاعر كان عظيم التفاؤل فأقسم ليعودن هذا المال إلينا كما ذهب ، ولسوف تكون تلك القناة مصدر سعادة الوطن كما كانت ينبوع بؤسه وشقائه فيقول :

ليعيدنها إلينا بوقت   زمن طالما أعاد وأبدى
إن ماء أجرت يداك لنرجو   أن سيحيى البلاد من حيث أردى

ويخيل إلى أن سر هذا التفاؤل إنما هو التأدب أمام ذكرى الراحل الكريم ، أما الحوادث التى مرت على الوادى بسبب القناة فقد أوحت إليه بالسخط على حظ مصر منها . وها هو ذا يقول فى قصيدته الكبيرة التى يؤرخ فيها لكبار الحوادث فى وادى النيل

جمع الزاجرين كرها فلا كا ... نا ولا كان ذلك الالتقاء
أحمر عند أبيض للبرايا ... حصة القطر منهما سوداء

وليس منشأ تلك النظرة السوداء إيمانه بأن تلك القناة عمل باطل لا خير فيه للوطن ، بل هي — كما قال في أسواق الذهب — عز الغد ، وكنز الأبد . والمنجم الأحد ، والوقف الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد .

وإذا كان هذا المجاز - كما قال أيضاً — هو حقيقة السيادة ، ووثيقة الشقاء أو السعادة ، خيط الرقبة ، من اغتصبه اختص بالغلبة ، ووقف للأعقاب عقبة — فلن تكون مصر السعيدة الرابحة إلا إذا كان لها خالصاً ، وسلطانها عليه تاماً . ولقد كان شوقي صادقاً في ثورته ، شأن كل مصري يرى على ضفتي القناة جنوداً وعُدّة ليس لمصر فيها فتيل ولاقطمير ، يقول شوقي لولديه أنظرا ترى على العَبْرين عبرة الأيام ، حصون وخيام ، وجنود قعود وقيام ؛ جيش غيرنا فرسانه وقواده ، ونحن بعرانه وعلينا أزواده ، ديك على غير جداره خلا له الجو فصاح ، وكلب في غير داره انفرد وراء الدار بالنباح .

ولا زال هذا شعورنا إلى اليوم ، فما دامت القناة ليست لنا فهي خطر البلاد الأغبر ، من التقاء الأبيض بالأحمر . ولعل ما تنبأ به شوقي يتحقق في القريب فتحيا البلاد بالقناة ، وتصبح ينبوع عز ومجد ورخاء .

وإذا كان يوم افتتاح القناة من أيام إسماعيل التي لا تنسى ؛ فهناك من آثاره الغر المخلدة مالا ينساه التاريخ ولا تستطيع مصر أن تنساه يوماً ؛ فقد أنشأ لها جيشاً مدرباً قادراً ، تفتح به أرجاء السودان وقسمه ونظمه ، وإن أرض السودان لجديرة أن تفتدى بالمال والدماء . وقد امتدت الآمال بإسماعيل ، وداعبته الأماني ، تغريه أن يملك كل منابع النيل . فلم يكفه خط الاستواء ، وراح إلى الحبشة يغزوها ، يريد تلك المنابع التي تجلب الخير إلى مصر مع طميها . وكم ودّ أن يركز فوق تلك المنابع رايته ، فكانت غزوة مشئومة أودت بجيش مصر ، وانتصت إلى الشاعر يحدثنا بزهو وفخار عن جهود إسماعيل في السودان :

وملكت السودان في الطول والعر ... ض ، وفي شأنه المعظم عبدا
نلت بالمال والدما منه أرضاً ... بجبال الياقوت والدر تفدى
ثم نظّمته ممالك كانت ... نار تنظيمها سلاماً وبردا
فهنئنا به السعادة عمراً ... وأصبنا به المعين المدا
وطريق البلاد نحو المعالي ... وسياجاً لملك مصر وحدّا

ولكن هذه النغمة الفرحة لا يلبث أن يشوبها الألم والحسرة عند الحديث عن غزوة الحبشة وما نال جيش مصر القوي فيها .

ليت لم تنش بعده في حماها ... جيش الكر والخديعة أسدا
سلبوا مصر أي جيش كريم ... كان للمجد والفخار أعدّا

وما أشد الحسرة تنبعث من هذا البيت :

أنت أنشأته فلم تر مصر ... جحفلا بعده ، ولم تر جندا

وهنا تنهار آمال إسماعيل في فتح تلك الديار .

ونفضت اليدين يأساً على الرغـ ... ـم كأن لم تجد من الصبر بدا
وإذا لم يكن من الله عون ... فاطّراح الآمال بالنفس أبدى

وحين انتهى شوقي إلى هذا الحد ، وقف يتأمل العبرة في هذه الحياة الجيدة التي قلب الدهر لها ظهر المجن ، « وما إسماعيل إلا قيصر لو أنه وفق ، والإسكندر لو لم يخفق » . ولقد راع شوقي أن رأى الناس يشبهون الدهر في غدره وتقلبه ، فأين الملوك الذين وفدوا إليه ، وأين السادة الذين تربوا ببابه ، وأين الأصدقاء الأوفياء ؟ لقد أعرض كل هؤلاء وجفوا ، وكفر بالنعمة قوم لو لا إسماعيل ما عرفوا معنى الحياة .

ما لمصر رأتك في العز لا ير ... سل دمعاً ، ولا يبلل خدا
أين ود عهدت منه وعطف ... وولاء مؤكد كان أبدى
وملوك له أتتك وسادا ... ت حداها إليك وفداً وفدا
أبت الناس فيك للناس إلا ... أن يجاروا الزمان وصلا وصدا
فرأيت الحميم أول جاف ... ووجدت الولي في البؤس ضدا
ورجالا لولاك لم يعرفوا العيـ ... ـش أبوا أن يقدّموا لك حمدا
ما رأوا بعدك الأمور ولكن ... يحسنون الكفران حلا وعقدا

ولقد مر بمصر من الأحداث ما كان مدعاة لأن يذكر الناس هذا الساهل ، وما كان ينتظر منه لو أنه ظل على العرش يحوطه ويرعاه . ولقد كان الظرف الذي أنشئت فيه تلك القصيدة مدعاة لأن يثير في نفس الشاعر هذا المعنى ، وما كان أخلق دهاء إسماعيل أن يمر ببلاده وقت العاصفة بسلام لو أنه لم يقص عن عرشه إقصاء

بان مجد البلاد إذ بنت والصفـ   ـو ، وكان الرجاء حياً فأودى
ودهتك الخطوب فينا فلم تتـ   ـرك صوابا لنا ولم تبق رشدا
ولقينا من الحوادث ما لم   يك يعيا به دهاؤك ذودا
فبكى البائسون منك حساما   طالما قدَّ هامة الخطب قداً
وبصيراً إذا الشورات لم تنجد   ذويها ساس الأمور مُسدا

والآن بعد أن قضى حقوق التاريخ ، ووقف يستقبل هذا الجسد الهامد ، عاد إلى وطنه بعد طول غيبة ، ليرقد فيه رقدة الأبد ، وليستريح بعد ما قاساه من عناء الغربة ، وبعد البنين ، وفقدان الصحة والشباب ، والجاه والسلطان ، وإن مصر لوفية وإن ظُن منها الجفاء ، مقبلة وإن خيل منها الإعراض ، لا تحمل لخادمها بغضاً ، ولا تكن له حقداً ؛ وإذا كانت الظروف قد جرت على مصر بعض المحن فقد غفرت مصر لإسماعيل كل شيء؛ فقد كان يبنى لها المجد وضخامة السلطان ، وترك لها ما خلد من جليل الآثار .

نازح الدار ما لبينك حد   ولقرب الديار زادك بعدا ؟!
هكذا من قضى حنيناً وشوقا   وأنيناً مع الظلام وسهدا
شاكيا للبنين والأسر والصحـ   ـة والجاه والشبيبة فقدا
عد إلى مصرك الوفية وانزل   فى ثراها واسكن من المهد لحدا
لا تقل أعرضت بلادى وصدت   مصر خير هوى وأكرم عهدا
وقبيح بالدار أن تعرف البغض   وبالمهد أن يباشر حقدا
غفرت مصر ما مضى لعلىّ   وبنيه وللحفيد الفدى
ولآثارك الجلائل فيها   ولجم من نابها خر هدا

وختم شوقى قصيدته محاولا أن يظهر سأمه من الحياة وبرمه بها ، ولكنه ضعف ونزل عن مستوى قصيدته الأول : ولم يدل شعره على انفعال حقيقى حاد .

لقد أنصف شوقى إسماعيل فى تلك القصيدة فذكر بإعجاب مآثره على هذا الوطن ، ولم ينس أن يبين برفق فضل الأناة والإصلاح على مهل .

ولشوقى مقطوعة أخرى قالها حين أشرف فى مدينة نابلى على الدار التى كان يقيم فيها إسماعيل ، وهنا ذرف عبرتين أثارهما فيه هذا الزمن المتقلب وما مر بإسماعيل من إدبار بعد عز ونعيم ، فها هو ذا يضطر إلى مغادرة داره والرحيل عن بلاده ، ويستقبل فى كل يوم من الدهر آلاما مبرحة حتى تنتهى متاعبه بالموت :

أبكيك إسماعيل مصر وفى البكا   بعد التذكر راحة المستعبر
ومن القيام ببعض حقك أننى   أرثى لعزك والنعيم المدبر
هذى بيوت الروم كيف سكنتها   بعد القصور الزاهرات بقيصر
ومن العجائب أن نفسك أقصرت   والدهر فى إحراجها لم يُقْصر
ما زال يخلى منك كل محلة   حتى دفعت إلى المكان الأقفر

وشوقى فى غير هذا الشعر الذى خصه بإسماعيل وأنشأه من أجله لا يكاد يعرض لذكره إلا مقترناً بأسمى آيات الإجلال والتكريم ، فهو وفى لأبناء إسماعيل ؛ لأنه ولد ببابه وارتدى آلاءه فمن العار أن يخونه فى بنيه .

أأخون إسماعيل فى أبنائه ؟!   ولقد ولدت بباب إسماعيلا
ولبست نعمته ونعمة بيته   فلبست جزلا وارتديت جميلا

وعند افتتاح الجامعة المصرية ، وكان الفضل فى إنشائها لابنة إسماعيل الأميرة فاطمة لا ينسى شوقى أن يشيد بولائه لبيت إسماعيل وأن يرى فى عمل الأميرة قبساً من نور والدها العظيم فيقول :

شمائل كان إسماعيل معدنها   قد يخرج الفرع شبه الأصل للناس

وكثيراً ما نراه فى حديثه مع المغفور له فؤاد الأول يلقبه بابن إسماعيل ويدعوه أن يقفو فى الإصلاح إثر المصلح الكبير :

هلمّ مثال إسماعيل وانسج   على منواله المنن الجساما

وأحب أن أشير إلى موضعين آخرين أطال فيهما شوقى الحديث عن إسماعيل . أما الموضع الأول فالقصيدة التى ودَّع بها اللورد كرومر ، وقد أقام له رئيس الوزراء يومئذ مصطفى باشا فهمى حفلة وداع فى دار الأوبرا ، وخطب اللورد فى هذه الحفلة فأهان الأمة وأهان الخديو إسماعيل فى وجه الأمير حسين كامل ولم يراع شيئاً من الأدب ولا المجاملة ، فأنشأ الشاعر فى ذلك الحين قصيدة ثائرة ، تعبر عن نفس كليمة وقلب موتور . وليس المجال مجال تحليل تلك القصيدة الرائعة ، ولكننى أكتفى هنا بدفاع شوقى عن إسماعيل ، فقد تمدَّح المحتل بأنه جلب لمصر الغنى ومدَّ لها أسباب الحضارة ، وقضى على إسراف إسماعيل وتبذيره فخاطبه قائلا :

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى   جحدوا الإله وصنعه والنيلا

وحيـاة مصر على زمان محمـد ... ونهوضها من عهـد إسماعيلا
ومدارساً ببنى البلاد حوافلا ... حظ الفقير بهن كان جزيلا
قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى ... ظل الحضارة فى البلاد ظليلا
إن قيس فى جود وفى سرف إلى ... ما تنفقون اليوم عدَّ بخيلا
أو كان قد صرع الفقش مرة ... فلكم صرعت بدنشواى قتيلا
لا تذكر الكرباج فى أيامه ... من بعـد ما أنبتَّ فيه ذبولا

وما أجل هذا التهكم يزجيه شوقى للمحتل الذى يعدُّ من سيئات إسماعيل إكثاره من بناء القصور :

وامدح قصوراً شادهنَّ بواذخاً ... قد أصبحت مأوى لكم ومقيلا
لو أنهُ لم يبنهـا لتخـذتمو ... منها المضارب والخيام بديلا

والموضوع الثانى قصيدة أنشأها يحيي بها المؤتمر الجغرافى الذى وفد إلى مصر فى عهد الملك فؤاد ، وكان إسماعيل قد أنشأ فى عهده سنة خمس وسبعين وثمانمائة وألف جمعية جغرافية وكان المؤتمر نزل بدارها فكان فى ذلك ما يجـدِّد ذكر إسماعيل قال يخاطب رجال المؤتمر :

كفى بدار تبوأتم أرائكها ... من عبقرية إسماعيل عنوانا

ولقد هاجت به الذكرى فذكر أنه لو أدرك عهد إسماعيل لنال ما لم ينله المتنبي من سيف الدولة :

ولو مشت فى الليالى تحت كوكبه ... غادرت أحمد نسياً وابن حمدانا

وقد وجد شوقى المجال لإحياء ذكرى إسماعيل فأخذ يعـدُّ مآثره وجليل أعماله :

ذو همة كفؤاد الدهر لو نظرت ... إلى بعيد دنا ، أو جامح لانا
بانى المآثر يعجزن الملوك بنى ... بكل أرض لكسرى العلم إيوانا
مدَّ الكنانة أطرافاً ووسَّعها ... ملكاً وأنزعها خيلاً وفرسانا
وفجَّر الماء فى جناتها فسقى ... ما كان بين عيون النيل ظمآنا
ونص فى تبيج الصحراء رايتها ... كالنجم يهدى بأقصى الليل حيرانا
لا تبرح الخيل بالسودان ملعبها ... حتى تنازل بالصومال أرسانا
ولا حقيقة من ملك ومن وطن ... حتى ترى السيف دون الملك عريانا

وقد أفصح شوقى فى هذه القصيدة فذكر أن الذى أحبط جهود هذا العامل ، فلم يجن ثمار عمله ، هو إنجلترا أدهى الممالك وشيطان الدول ، فأينما كان يتجه يجد منها ما يفسد عليه غايته :

شيطان ملك وفتح قد أتيح له ... أدهى الممالك والدولات شيطانا
لم يمض فى غارة إلا أصاب لها ... كيداً ينازعه الغايات بقظانا

وهكذا ضاعت آمال إسماعيل التى بناها ، يريد بنـاء ملك عريض وطيد :

خيـال ملك تلمَّسنا حقيقته ... فأخطأتنا ، وكانت حظر (بابانا)
لم نصح من عرس دنياه وموكبها ... حتى سحبنا على الأحلام نسيانا

وفى تلك القصيدة تعرَّض شوقى لتهمة إسراف إسماعيل ، ودافع عنه بأنه إنما أسرف فى سبيل بناء الملك والنهضة والإصلاح

وبعد فهذه صورة إسماعيل فى شعر شوقى الذى كان يرى فيه — فضلا عن ذلك كله — خالق نهضة الفكر فى مصر والشرق وبهذا العنوان أهدى إليه الجزء الأول من شوقياته .

أحمد احمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم — بجامعة فؤاد الأول

العدد القـــادم
هـــو
عددنا السنوى «الممتاز»
وهو حافل كعادته
بأروع ما يكتب فى موضـــوعه
لصفوة من أقطاب البيان
فى مصر والعالم العربى
نسخه محدوده وثمنه ثلاثون مليما